الاميركية والاسرائيلية، قادرتان على المضي في ذلك الى اجل طويل: يكلف الأمر قليلاً من الدولارات، وقليلاً من الاسلحة؛ أمّا الطرف الآخر، فيكلفه هذا البطش الكثير: ضحايا بشرية بالآلاف، آلاماً جماعية لا حصر لها. يبدو الامر، وكأن النتيجة معروفة: انتصار بيروس (Pyrrhus)[١٣] (أي انتصار بالغ الدموية). غير ان كلا الادارتين، الاميركية والاسرائيلية، لا بد من ان تدفعا ثمناً باهظاً؛ والاوضاع الاقتصادية والسياسية المتفاعلة هي مؤشر الى ذلك. في الوقت عينه، لا مصلحة، مطلقاً، لجميع الدول، التي لصالحها السلام في الشرق الاوسط، ومن الجملة الدول الاوروبية الغربية، ان تساهم، أو ان تصمت عن انتصار البيروس هذا، الذي يمكن ان تكون له مضاعفات بالغة الخطورة.

الهجرة السوفياتية المكثّفة يراد منها لدى الادارتين، الاسرائيلية والاميركية، ان تكون أداة في انتصار البيروس. مع ذلك، فان الفكرة، على الرغم من خطورتها، ولاانسانيتها، محكوم عليها، على المدى الأبعد، بالفشل. أولاً، لأن المخطط سوف يكلف الادارة الاسرائيلية الكثير، ولا تكفي «اربعمئة مليون دولار» لتسديد النفقات، ولمعالجة الخلل، الذي سوف تحدثه الهجرة المكثّفة في المجتمع الاسرائيلي؛ ثانياً، لأن البشر لم يعودوا، لا في هذا الجزء من العالم، ولا في غيره، قطعاناً، يمكن تسييرهم من أجل أي أهداف، مقنعة كانت أم غير مقنعة، خطرة كانت أم غير خطرة. ان تمرّد عدد، ولو كان قليلاً حتى الآن، من العناصر العسكرية الاسرائيلية على سياسة البطش الجارية في الاراضي المحتلة هو مؤشر؛ واتساع معسكر السلام في اسرائيل هو مؤشر؛ وأزمة الحكم هي مؤشر؛ الخ.

ان «أمن» اسرائيل، الذي ترفعه الادارة الاسرائيلية، هو ذريعة لكل عملياتها العدوانية؛ هو فزاعة تستخدمها الدول ذات العلاقة، لسبب أو لآخر، ضد المنطقة العربية. غير ان ثمّة حاجة الى الأمن، الى الأمن الحقيقي لدى اسرائيل؛ وهذا الأمن لا ينفصل، موضوعياً وعملياً، عن أمن المنطقة العربية ككل. الأمن الحقيقي هو الامن المشترك، الأمن المتبادل، الأمن الذي يسمح لشعوب الشرق الاوسط بأن تعيش بسلام، بدون حرب، وعلى قاعدة اقتصادية سليمة، وقابلة للتطوّر.

لقد بدأ الاستعمار الابيض في جنوب افريقيا قبل قرون. واستطاع هذا الاستعمار، بتطوراته المختلفة، اخضاع السود، سكان البلاد؛ وأقام البيض، من اجل «أمنهم»، نظام الفصل العنصري؛ واستمر هذا النظام زمناً طويلاً. مع ذلك، بدأ هذا «الامن» يهتز منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وسوف يسقط لامحالة، لأنه «أمن» مصطنع يقوم على «لا أمن» الآخرين.

مصير «الأمن» الاسرائيلي المصطنع سوف يسقط أيضاً، لأنه مبني على «لا أمن» المنطقة العربية، مع فارق أساس، هو أنه لن يعمّر طويلاً مثل «أمن» جنوب افريقيا، الذي بني في قرون ماضية. نحن، الآن، في القرن العشرين، وعلى الطريق الى ان ندخل عتبة الألف الثالث الميلادي؛ والتناقض الكبير بين وعي الانسان واستعباد الانسان للانسان لا يسمح باستمرار الاوضاع الشاذة القائمة على الكرة الارضية: إمّا ان يتوازى وعي الانسان السياسي والاجتماعي مع وعيه العلمي والتكنولوجي، أو يدمّر الانسان نفسه في نهاية المطاف، من طريق سلسلة من الحروب تنتهي بحروب نووية.

المنطلق الهامّ والأساس في البريسترويكا هو ان أمن بلد ما لا يمكن ان يبنى بالاعتماد على السلاح فقط، وبمعزل عن أمن البلدان الاخرى. الأمن الوحيد الممكن، والدائم، هو الامن المشترك، المتبادل، المبني على السلام لجميع الشعوب. هذا صحيح جداً؛ وصحيح جداً، أيضاً، كون الامن المشترك لا يمكن ان يبنى من جانب واحد. لو فرضنا ان الدول العربية تخلّت، بعصا سحرية، عن مواقفها (التي ليست مبرّأة من الاخطاء)، وقالت للادارة الاسرائيلية: «اسرحي وامرحي»؛ فهل